

الطير في ثقافة التصوف

البروفسور د. نجدت طوسُن

وردَ في إحدى الآيات القرآنية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى أمر سيدنا إبراهيم ﷺ بأخذ أربعة من الطير وذبحها، ثم خلط أشلائها ببعضها، ووضع كل جزء منها على رأس جبل من الجبال، ثم بعد ذلك دعوة تلك الطيور إليه. ولما فعل سيدنا إبراهيم ﷺ ما أُمِرَ به عادت الحياة إلى الطيور من جديد بإذن الله تعالى وجاءت إلى إبراهيم. وورد في آيات أخرى أن سيدنا سليمان ﷺ كان يعلم لغة الطير لا سيما طائر الهدهد الذي يرد حواره وحديثه معه في هذه الآيات. وللطير مكانة مهمة أيضاً في ثقافة التصوف، حيث يلجأ الصوفيون أحياناً إلى الأمثال والحكايات المتعلقة بالطيور في سبيل شرح المسائل الصوفية والأخلاق بلغة مبسطة وسهلة.

إن الصوفيين الذين يصوِّرون حياة الأرواح- المخلوقة قبل الأجساد- داخل البدن في الدنيا لمدة محدودة وتعرضها للمنغصات والشدائد الدنيوية كالطائر الحبيس في قفص البدن، ويشبِّهون الموت- أي التحاق الروح بموطنها الأصلي- بتخلص الطائر من القفص وحصوله على حريته، ويطلقون على هذه الحرية تسمية "ليلة الزفاف" لأن الروح سوف تلقى راحة أكبر مع محبوبها الحقيقي بعد نيلها حريتها. ومن ناحية أخرى يوجد لدى الصوفيين مفهوم يُسمى "الموت قبل الموت". وهذا الموت يتمثل بقتل الخصال أو الأخلاق السيئة والخبيثة للنفس مثل الحسد، والكبر، والرياء، وحب الدنيا. فأرواح الأشخاص الذين يفلحون في الوصول إلى هذه التنقية الأخلاقية تتغلب على أنفسهم، وتحقق حريتها وهي ما تزال في الدنيا. ويبين مولانا جلال الدين الرومي هذا الأمر في كتابه (المثنوي) من خلال "حكاية الببغاء والتاجر" التي يقول فيها:

كان من عادة أحد التجار عندما يريد الخروج في تجارته إلى الهند أن يسأل أهل بيته عما يرغبون من هدايا يجلبها لهم لدى عودته من سفره، فيطلب منه أفراد أسرته ما يريدونه منه. وذات مرة سأل أفراد الأسرة جميعاً، حتى وصل إلى ببغاء له في البيت، ولما سأله عن الهدية التي يرغب بها، قال

الببغاء: "لدي الكثير من الأقارب الببغاوات في الهند، فاحمل مني إليهم السلام، وقل لهم: هل من اللائق بكم أن تطيروا بحرية بينما أنا مسجون هنا في القفص، هل هذا الأمر يليق بالصداقة؟" فذهب التاجر إلى الهند، وبينما كان في أحد الأيام منشغلاً بأمور تجارته إذ رأى بعضاً من طيور الببغاء فوق أغصان شجرة قريبة منه. فنقل إليهم سلام الببغاء الذي في بيته وأخبرهم بقوله. وما إن سمعت هذه الطيور الكلام حتى بدأ أحدهم بالارتجاف، ووقع على الأرض ميتاً. فحزن التاجر كثيراً على حال هذا الطائر المسكين. ولما عاد إلى بلاده أخذ بتوزيع الهدايا على أهل بيته، وبينما هو كذلك ناداه الببغاء قائلاً: "وأين هدية هذا العبد الفقير؟ هيا أخبرني عما رأيته وقلته". فأخذ التاجر يقص عليه الأحداث التي جرت معه ببالغ الحزن والأسى. ولما سمع الببغاء الذي في القفص كلامه ارتجف، وسقط ميتاً، فزاد الأمر من حزن التاجر. عجز التاجر عن فهم ما يحدث، فأخرج الببغاء من القفص ووضعه جانباً. إلا أن الببغاء خفق بجناحيه فجأةً، وطار وحطَّ فوق غصن شجرة قريبة. أُصيبَ التاجر بالذهول، وبينما كان ينظر إليه بدهشة وحيرة كبيرة، أخذ الببغاء يقول:

"لقد أرسل إليَّ ذاك الطائر الذي في الهند نصيحة بفعله. أراد القول: دعك من الكلام، ومن التلذذ، فصوتك الجميل قد ساقك إلى القفص. وإن سبب ادعائه الموت هو من أجل النجاة، إذ قال: أيها الببغاء الأسير الذي تعزف الألحان وتُطرِب الإنسان متْ مثلي، وتخلص من أسرك. ففعلت مثله وتخلصت من الأسر".

ثم بعد ذلك قدَّم الببغاء عدة نصائح أخرى أعجبت التاجر كثيراً، إذ قال: "أستودعك الله أيها السيد، فأنا قد تخلصت من الأسر، وأنا الآن أعود إلى موطني، وإلى مكاني الأصلي الذي قدمت منه. وإذا فعلت مثلي فإنك ستنجو أيضاً، وتحصل على حريتك". فقال التاجر بدوره للببغاء: "هيا اذهب بأمان الله، لقد أرشدتني الآن إلى طريق جديد". فأخذ التاجر يقول لنفسه: "لقد كان ذلك نصيحة قيمة لي، فَلأسلكْ طريق ببغائي، فهذا الطريق هو طريق نوراني يقود الإنسان إلى الحقيقة".

يرى أهل التصوف بأن الاخلاق السيئة وحب الدنيا يشبه الأصفاد التي تقيد يدي الإنسان وقدميه. يقول مولانا جلال الدين الرومي في هذه المسألة: "يا بني، حطِّمْ قيدك، وكن حراً! فإلى متى ستكون أسير الفضة والذهب؟". فالإنسان مثل الطائر الذي غاصت رجلاه في القطران ويعجز عن الطيران مهما خفق بجناحيه لتجمد القطران على رجليه، فالإنسان كذلك سيبقى في حالة أسر طالما أنه لم يفلح في تخليص قلبه من القيود الدنيوية. ولا بد من تسخين القطران وإذابته مرة أخرى لكي يُفلِت الطائر رجلَيه من القطران المتجمد ويستطيع الطيران من جديد. وليس من شيءٍ بإمكانه تسخين ذاك القطران وإذابته مجدداً سوى "محبة الله تعالى".

وقد كان هذا الأمر الفكرةَ الرئيسية لكتاب (رسالة الطير) الذي كتبه ابن سينا ووضع فيه قصة رمزية عن الطيور، وللكتب الأخرى المشابهة التي أُلفت فيها بعد حول هذه المسألة.

ويورد فريد الدين عطار (توفي ٦١٨هـ/ ١٢٢١م) في كتابه (منطق الطير) الذي جعل موضوعه كلام الطيور ومغامراتها، قصصاً رمزية حول بداية تعليم التصوف، ومراتبه، ونهايته. وقد ذُكِر في الكتاب أن الطيور اجتمعت ذات يوم، فحصل الاضطراب والفوضى لعدم وجود رئيس لها. ذلك أن كل واحد منها رأى نفسه أحق بالرئاسة وأهلاً لها. وفي هذه الأثناء جاء

طائر الهدهد وأخبر الطيور بأن هناك سلطاناً للطيور اسمه سيمورغ. فانطلقت الطيور جميعاً لرؤية سلطان الطيور، ولكن الطريق كان شاقاً، فأرادت بعضها التراجع عن سفرها. وكان أولها الببغاءُ الذي كان يعيش داخل القصور وفي بيئة محاطة بكل أسباب الراحة والرفاهية، فاعتذر من أصحابه واستأذن منهم بالرجوع. وجاء بعده طائر الطاووس المتفاخر بجمال ريشه، وتلاه في التراجع البلبل العاشق للورود والأزهار... بينما كان الهدهد يقدم النصائح للبقية من خلال سرد القصص والأمثال، ويشجعهم على متابعة الرحلة إلى السلطان.

إن هذه النصائح موجهة بالأساس إلى الناس الذين يعيشون في أجواء من الراحة والرفاهية، والذين يتجنبون الصعاب والمشاق ويهربون منها، والذين يولون الأهمية للجمال الخارجي، والمبتلون بمحبة الدنيا والمحرومون من محبة الله تعالى.

وبعد هذه النصائح والتوجيهات أرادت الطيور أن يقودها الهدهد لكي تتابع الرحلة، لكن الهدهد رفض طلبهم، ولما وقعت القرعة التي أجروها بينهم عليه قبلَ الهدهد وصار قائدهم (المرشد أو الشيخ). فبيَّنَ لهم الهدهد أوصاف وديان الطلب، والعشق، والمعرفة، والاستغناء، والتوحيد، والحيرة، والفقر والفناء.

ولكن عندما كانوا يعبرون من الوديان الخطرة، كانت بعض الطيور تموت أو تضيع. وفي نهاية المطاف بقي ثلاثون طيراً، فوصلوا إلى وادي البقاء، وأرادوا الدخول إلى قصر السلطان. ولكن الحارس رفض إدخالهم إلى القصر، فأصيب الطيور الثلاثون باليأس والإحباط في بادئ الأمر، فقدم لهم الهدهد الدعم المعنوي والروحي. وتوجهوا إلى بستان الوصال، وأخذت كل وردة في البستان كالمرآة تريهم أنفسهم، أي تظهر وتعكس ثلاثين طيراً. فأدركوا حينها بأن سيمورغ السلطان قد تجلى فيهم، فكلمة سيمورغ باللغة الفارسية تعني "ثلاثون طير". ويقال له العنقاء أيضاً. إن الوديان السبعة التي اجتازتها الطيور في هذه الرحلة، أي وادي الطلب، والعشق، والمعرفة، والاستغناء، والتوحيد، والحيرة، والفقر والفناء، هي المراتب السبعة التي يجب على الدرويش اجتيازها في طريق التعليم والتربية الروحية.

وقد كتبَ درويش شمس الدين الديوان الشعري (ده مورغ) الذي يعني (عشرة طيور) باللغة التركية متأثراً بكتاب فريد الدين عطار (منطق الطير)، وقَدَّمَه للسلطان العثماني ياوز سليم. ولكن الطيور هنا عشرة وليست ثلاثون، وهذه الطيور ترمز لعشر شخصيات إنسانية مختلفة؛ فالبوم رمز للصوفي، والغراب رمز للشاعر، والببغاء رمز للعالِم، والنسر رمز للفيلسوف، والبلبل رمز للنبيل، والهدهد رمز لأرباب الحكمة، والسنونو رمز للمنجِّم، والطاووس رمز للتاجر، والحجل رمز للفلاح العاشق، واللقلق رمز للمتمسك بدينه. فيقوم كل طائر متكلم من هذه الطيور العشرة أولاً بتقديم نفسه، ثم يشير إلى الأخطاء التي وقع فيها الطائر الذي تكلم قبله، ويطرح نصائحه، ويعمل على إظهار الطريق الذي يراه صائباً وصحيحاً.

ويربط مولانا جلال الدين الرومي صياح طائر القمري: "كو، كو" بعبارة تعني باللغة الفارسية: أين، أين؟ وعندما يسمع الأصوات التي يخرجها اللقلق بمنقاره: "لق، لق" فإنه يتذكر معناه باللغة العربية "لكَ، لكَ"، ويقول: من أين سيأتي البلبل ليشم رائحة الورود؟ وطائر القمري سوف يبحث عن حبيبه وهو يقول: "أين، أين؟" وطائر اللقلق سوف يحرك منقارَيه وهو يقول من صميم قلبه:

"لكَ، لكَ". فماذا يعني "لك"؟ إنه يقول: يا إلهي! الملك لك، والمال وكل شيء لك.

وقد كتب الشاعر سنان أُمي شعراً ذكر فيه كلمة اللقلق قاصداً بها المرشد أو الشيخ، يقول في مطلع قصيدته:

جمع اللقلق الطين من أجل بناء بيته

وفيه حوض حمَّام نحته من اليقطين.

ينظر الناس إلى الجانب الظاهري لطائر اللقلق المتمثل بأكله، وشربه، وهم يرون فقط ذلك الجانب، ولكن لطائر اللقلق أيضاً سفرات ورحلات طويلة مجهولة متمثلة بقدومها ورحيلها في فصلي الربيع والخريف.

والأولياء والمرشدون الحقيقيون مثل اللقالق أيضاً، ذلك أن لهم رحلات وسفرات خفية غير مرئية. فاللقلق جمعَ الطين من أجل بناء عشه، أي إن المرشد الكامل يعيد البناء من جديد، أي إنه يجمع حوله الناس المخلوقين من التراب والماء من أجل تربيتهم وتعليمهم، وبناء أناس كاملين. وينشغل بإفراغ العفونة من داخل اليقطين، أي الأخلاق السيئة والخبيثة من داخل الأشخاص الذين لم يتلقوا التعليم والتربية الروحية، فهذا هو وظيفته. ويتابع في الأبيات التالية التعبيرَ عن أصناف البشر من خلال الترميز إليهم بالطيور الأخرى، فيدلل على الغافلين من مرتزقة العلم والمعرفة بكلمة "الصقر"، ويرمز بكلمة "العقعق" إلى المتملقين الذين يمدحون أولئك، ويرمز بكلمة "الغراب" إلى اللصوص والزهاد والعباد المزيفين.

ويسرد عمر فؤاد كاستامونولو الذي يُعد أحد مشايخ الطريقة الخلوتية في منظومته الشعرية "البلبلية" المكتوبة باللغة التركية، شكوى مليئة بمختلف الأكاذيب والافتراءات المقدمة بحق البلبل إلى سيدنا سليمان عليه السلام من الغراب، والعقعق، وغيرهما من الطيور التي انزعجت من عشق البلبل للورود، وشعرت بالغيرة والحسد من صوته الجميل. فاستُدعي البلبل إلى محكمة سليمان عليه السلام، فقال النسر الذي يدير المحاكمة بأنه لأول مرة يرى مثل هذه الدعوى، لذلك لا يستطيع البت بها، ولا يقدر على هذه الدعوى سوى البوم. فجاء البوم الذي كان منشغلاً بذكر الله في خرابته، واستمع إلى ادعاء المشتكين، وأقوال البلبل. وبعد التمحيص في الدعوى وأقوال الأطراف، حكمَ لصالح البلبل معللاً حكمه بأن أهل الظاهر والحساد لا يقدرون على فهم أحوال أهل العشق. فدعا البلبل لسيدنا سليمان عليه السلام وشكره، ثم توجه إلى الورود.

وصفوة الكلام أن الصوفيون اتجهوا إلى بيان الأخلاق الصوفية، ومسائل العشق الإلهي، والفكري الصوفي من خلال استعمال الرموز، وسرد الحكايات والقصص، فاستخدموا الطيور أبطالاً لهذه الحكايات لتحقيق هذه الغاية. واستطاع الصوفيون الذين استعملوا في حكاياتهم أنواعاً مختلفة للطيور من أجل التعبير عن الشخصيات الإنسانية المختلفة، أن يضمنوا بهذا الأسلوب فهماً أفضل لموضوعاتهم، وفي الوقت نفسه جاؤوا بالكثير من الأعمال الأدبية في هذا الميدان.



الميزاب الذهبي

ALTINOLUK

مجلة تصدر كل شهرين-العدد الثامن عشر(كانون الثاني - شباط ٢٠١٧)





الموقف والمنهج العثماني المنتظر

Beklenen Osmanlı Tavrı ve Tarzı